

مَلاحِ المَدَن التَّومِيدِيَّة

أ. بعطيش عبد الحميد

- جامعة باتنة -

المُلخَص:

إن المدينة خلاصة تاريخ الحياة الحضرية، نشأت نتيجة الرغبة في التعايش كمجموعات بالنسبة للأفراد، ولتحقيق الاستقرار الذي كان يحاول الإنسان القديم جاهدا الحصول عليه، فهي أصدق تعبير لانعكاس ثقافة الشعوب وتطور الأمم، وهي موئل الحضارة وحاضنتها، حيث نشأت بها فنون الإنسانية وآدابها، كما تعبّر عن صورة كفاح الإنسان وانتصاراته وانهزاماته.

وتفيد الاكتشافات والتنقيبات الأثرية في الجزائر أنها تتوفر على عدد كبير من المدن الأثرية، وتكتسي أهمية تاريخية وثقافة عالمية، منها ما هو مصنف ضمن التراث العالمي المحمي، ويمكن اعتبار المدن الثلاث: سيرا، سيقا وتيفست نماذج لأقدم المدن الجزائرية القديمة، وكان يمكن أن تنمو في شكلها المعماري الإفريقي الأصيل أكثر لولا الاستعمار الذي فرض على السيادة الوطنية وأزال معالم الحضارة النوميديّة ورموزها الفنية، وحمل إلى هذه البلاد فنونه وحضارته.

وان كنا اليوم لا نكاد نجد آثارا للمدن النوميديّة ما قبل الاحتلال الروماني، فلأن العمران النوميدي اندثر وحلّ محله عمارة الرومان، ولكننا نستطيع من خلال مقارنة بعض الشواهد الأثرية أن نستخلص أشكال العمارة النوميديّة، أما فيما يخص النظم الإدارية لهذه المدن فهي غير معروفة بدقة، واستخلصنا المعلومات الخاصة بهذه الأنظمة من خلال بعض الوثائق النقشية والمسكوكات التي أبرزت للوجود بعض الأنظمة الإدارية المتعلقة ببعض المدن الجزائرية القديمة.

Résumé:

La vie est le résultat d'une histoire de vie urbaine et le fruit d'un désir de coexistence en vue de trouver la stabilité que l'homme a toujours cherchée. La ville est l'expression la plus honnête qui reflète la culture ainsi que l'évolution du peuple.

La ville, dont la constitution et le progrès sont tellement difficile à suivre, est issue des circonstances spirituelles et matérielles, sociales et politiques.

Les découvertes archéologiques en Algérie ont montré que ce pays possède un nombre important de villes dotées d'une importance historique et d'une culture universelle. Cirta, Cig et Tivest sont des modèles de ces villes anciennes qui pourraient évoluer dans sa forme architecturale africaine authentique si elles restaient hors d'atteinte par les diverses vagues de colonisation.

Les recherches ont toujours obligé les chercheurs à trouver des réponses aux questions : ou, quand et sous quelle circonstance ces villes ont-elles apparu ? Quelle est sa contribution dans l'histoire de la région ? Est-ce qu'il y a un progrès urbain dans l'histoire humaine qui est attaché aux apparitions et au progrès de ces villes ? C'est ce que j'aborderai dans cette étude.

مشكلة الدراسة

لقد وجهت الدراسة دائما الباحثين للسؤال متى وأين وتحت أي ظروف ظهرت المدن الجزائرية عبر العصور التاريخية؟ وبماذا أسهمت هذه المدن في تاريخ المنطقة؟ وهل هناك نمو حضاري في التاريخ الإنساني مرتبط بظهور المدن أو نموها، فالأبحاث الأنثروبولوجية والأثرية وغيرها التي أنشأت عن مدن وشعوب شمال إفريقيا قليلة جدا، أما التي أنجزها الأجانب فهي لا تخلو من النزعة الاستعمارية، وهي غير سليمة إذا ما تمعن فيها الباحث بدقة وموضوعية عن هذه الفترة، وبالرغم من هذا فإننا لازلنا نعتمد عليها بالدرجة الأولى، كما أن المغاربة المعاصرون لم يولوا اهتماما كبيرا للحقبة التي نناقش أخبارها، حيث رأوا المستعمرين يمجّدون روما فانحازوا تلقائيا إلى جانب قرطاج، معتبرين أن الشمال الإفريقي منطقة يتجاذبها باستمرار الشرق والغرب عبر التاريخ.

ولهذا فإن طبيعة قيام المدن الجزائرية القديمة ونموها مسألة يصعب أن نتبعها بدرجة ملحوظة لأسباب عديدة، ومما لا شك فيه أن هذه المدن انبثقت تعبيرا عن

ظروف روحية ومادية واجتماعية وسياسية، انعكست هذه الصورة على تغير المدن وتطور العمارة.

التمركز الجغرافي لقبائل النوميدي:

هناك دلائل كثيرة تشير إلى وجود شكل من أشكال التنظيم السياسي في بلاد المغرب القديم، حيث أشار هيرودوت إلى أن المجموعات السكانية التي تقيم على امتداد الشمال الإفريقي تنتمي إلى أرومة واحدة، وهي موزعة على مجموعات من القبائل عدا الأجزاء التي أقام بها المستوطنون الإغريق والفينيقيين.⁽¹⁾ وقد تصل هذه المجموعات البشرية التي ذكرها هيرودوت إلى مرتبة ممالك أو إمارات، وبذلك يمكن أن نسمي حكامها ملوكا أو أمراء، وقد أشار شارل أندري جوليان إلى وجود شكل من أشكال الدولة في بلاد المغرب القديم حيث قال، أن القبائل النوميديّة تكوّنت على شكل اتحادات قبائل قبل أن تتشكل الدولة.⁽²⁾

فالقبيلة هي مجموعة أسر متحدة بوشائج القرابة، وهي أول صورة للنظام الاجتماعي الدائم، ويكون الشمال الإفريقي القديم قد وصل إلى هذا الشكل من التنظيم على امتداد مراحل تاريخية طويلة، ويكون ذلك نتيجة لتراكمات اجتماعية عززت التضامن بين أفراد القبيلة، فتكونت الأعراف التي تنظم الحياة الاجتماعية.⁽³⁾ فلا جرم أن حياة النوميديين كانت شبيهة بحياة بقية الأمم والشعوب في المسكن والملبس والمكسب، ولكنهم ترقوا وفق طبيعة النشوء والارتقاء، وتأثروا بمجاورة الإغريق وبمعاشرة الفينيقيين ثم فيما بعد بالرومان.⁽⁴⁾ ومعلوم أن صورة سوقية منتشرة توحى بأن إفريقيا الشمالية كانت أكثر تمدناً وحضارة ورخاء من اسبانيا وجنوب فرنسا خلال القرون الأولى قبل الميلاد.⁽⁵⁾

إن الدولة النوميديّة قد تشكلت في صورتها التاريخية من قبائل الماسيل والمازسيل، وقد عُرف هذا الاتحاد في المصادر التاريخية بالاتحاد الكونفدرالي للنوميديين، ولم تكن لتلك القبيلتين حدود معلومة فيما بينها، بل كانت تتراوح بين المد والجزر، وقد

⁽¹⁾ Hérodote, **Histoire**, livre V.32, Texte établi et traduit par Ph.E. le Grand, éditions les belles lettres, Paris 1980.

⁽²⁾ شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ج1، ترجمة: محمد مزالي، والبشيرين سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس 1983 ص81.

⁽³⁾ محمد العربي عقون، **الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم**، دار الهدى، الجزائر، 2008 ص 166.

⁽⁴⁾ محمد بن المبارك الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 110.

⁽⁵⁾ عبد الله العروي، **مجلد تاريخ المغرب**، ج1، المركز الثقافي العربي، ط 5، المغرب 1996، ص 76.

اتخذت هذه القبائل مُدناً وقرى وأحاطوها بأسوار من حجارة ضخمة غير منحوتة إلا قليلا، وكانت مساكنهم داخل المدينة أو القرية في أول عهدهم مركبة بكيفية وقتية ليسهل عليهم نقلها حيث ساروا، حيث يذكر قزال (Gsell st) أن هناك قبائل لم تبحر أوطانها، وسكان الصحراء أبعد القبائل وأكثرهم انتقالا لجذب الأرض وقلة العشب.⁽⁶⁾ وتجدر الإشارة إلى أن القبائل الرُّحل كانت كثيرا ما تقوم بغارات على القرى والمدن القريبة من مضاربها وتقوم بسلب المحاصيل الزراعية، الأمر الذي دفع المستقرين إلى تحصين قراهم ومدنهم، وتخزين محاصيلهم الزراعية في قرى جماعية وقلاع وفي أماكن وعرة.⁽¹⁾

ويوضح المفكر والباحث عبد الله العروي أن مصطلح القبيلة يطلق على تنظيم الرحل الجمالة، أي نظام اجتماعي يلاءم وحده المحيط الصحراوي الصرف، كما يُطلق أيضا على سكان الجبال والسهول بهدف ضمان التوازن بين الأسر، ويعتبر بذلك أن القبيلة هي التنظيم الملائم لذلك.⁽²⁾

ومن أشهر القبائل النوميدية:

- 1- قبائل الاسفودالوس (Asphodelos) التي كانت تحتل الركن الشمالي الشرقي من الجزائر وشمال غربي تونس.
- 2- قبائل الموزولامي (Musulamaes) وكان مركزها الرئيسي بالأوراس، ثم امتدت حتى نهر المثل (Muthul) وتبسة.
- 3- قبائل النتابوتاس (Nattabutas) التي كانت تستقر بالشرق الجزائري في الحدود مع تونس.
- 4- قبائل السوبوريوراس (Suburbures) في الجنوب الغربي من سيرتا وسهول سطيف.⁽³⁾
- 5- قبائل الموكيني (Mukeni) وتقطن نواحي الشلف شرقا حتى تلمسان غربا.⁽⁴⁾

⁽⁶⁾Gsell (st), *Histoire ancienne de l'Afrique du nord*, T.V, Librairie Hachette, Paris 1927, p 68.

⁽¹⁾Gsell (st), *H.A.A.N*, T. V, p 255

⁽²⁾ عبد الله العروي، المرجع السابق، ص 100

⁽³⁾ محمد الصغير غانم، *المملكة النوميدية والحضارة البونية*، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر

1998، ص 161.

⁽⁴⁾ فتحيّة فرحاني، *نوميديا من حكم الملك جايا إلى بداية الاحتلال الروماني 213 ق.م - 46 ق.م*، مطبعة متيجة

2007، ص 210.

وقد تمكن الملك ماسينيسا من توحيد القبائل البربرية من نوميديا ، ووضع بذلك أسس الدولة النوميدية الموحدة ، ومنه عيّن عاصمة لحكمه وهي سيرتا ، وأصدر عملة وقام ببناء مجموعة من المرافق في المدن ذات الصبغة الدينية والإدارية.⁽⁵⁾

نشأة المدن النوميدية ونموها:

كانت المدن النوميدية العائدة إلى القرنين 4 و3 ق.م ذات طابع زراعي رعوي تتبادل منتوجاتها الرئيسية عن طريق المقايضة سواء أكان ذلك في مجال محيطها الداخلي أو مع المدن القرطاجية الساحلية.⁽⁶⁾

ففي نظر قزال أن المدينة الإفريقية هي المدينة القرطاجية ، أما النوميد فلم يعرفوا تمدُّنا بل أنشأوا فقط قرى وبقوا يتنقلون بقطعانهم وخاصة الغنم والماعز والبقر والحياد ، ويضيف أنه حتى لما تعرف النوميد على الزراعة بقي نشاط الرعي مهيمنا على الحياة الاقتصادية،⁽¹⁾ ولكن نستنتج من خلال المصادر الاختلافات بين الفلاحين المستقرين ومربي الماشية الرحل ، فالأوائل يعيشون على خدمة الأرض والتجارة ويسكنون أكواخا من الحجارة والطين المجفف أو من أغصان الأشجار ، إلى جانب مساكن العامة البسيطة نجد القلاع والحصون التي يلجأ إليها الأهالي عند تعرضهم إلى هجمات الأعداء ، أما الرعاة فكانوا يعتمدون على منتجات حيواناتهم⁽²⁾ ويعيشون في مغارات ومنازل متقلة من صنُّعهم يطلق عليها إسم (Mapallia) ، وتتكوّن من مواد نباتية مثل البروق (Asphodele) والأسل (Jonc) والقصب والحشفة (Chaume) ، ويمكن تركيبها وفكّها بسهولة وبسرعة.⁽³⁾

إن ما كشفت عنه الحفريات والنقوش الصخرية من أبنية وأسلحة وأثاث ولباس وطقوس ، يشير إلى حياة مزارعين مستقرين أكثر مما يشير إلى حياة بدو رعاة ، وعثر بالعكس ما ذكرته بعض المصادر الكتابية على أوان الأكل ، وعلى مقابر كبيرة تدل على تجمعات سكانية ضخمة.⁽⁴⁾ وهذا ما أشار إليه بعض المؤرخين

⁽⁵⁾ Flatters (p), "L'Afrique septentrionale", *Revue Africaine*, Vol. 21, 1877, pp, 358-360.

⁽⁶⁾ مجموعة من الباحثين ، الاحتلال الاستيطاني وسياسة الرومنة ، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م ، الجزائر 2007 ، ص 26.

⁽¹⁾ Gsell (st), *H.A.A.N*, T V, p 63.

⁽²⁾ Ibid, T VI, p 7.

⁽³⁾ الاحتلال الاستيطاني وسياسة الرومنة ، ص 27.

⁽⁴⁾ عبد الله العروي ، المرجع السابق ، ص 95.

الكلاسيكيين إلى أن أغلبية النوميدي قد تجمعوا في قرى أشير إليها في المصادر الكلاسيكية باسم (Castellum).

وباحتكاك النوميديين بالمراكز التجارية والمدن القرطاجية كانوا قد اندمجوا في حياة الاستقرار والتمدن، وبالتالي عملوا شيئا فشيئا على نقل تلك اللّمسات الحضارية إلى داخل نوميديا، مما ترتب عنه تسارع عملية الاستقرار والتحضر في مراكز وقرى داخلية، فقامت هي الأخرى ونمت حتى أصبحت حواضر كبرى للملوك النوميديين⁽⁵⁾.

كما تركّزت المدن النوميديّة على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط، وأغلبيتها كانت مستوطنات فينيقية قرطاجية، بها مصارف تجارية وتحتكرتها جاليات بونيّة وتربطها علاقات اقتصادية مع القرى النوميديّة الأخرى،⁽⁶⁾ وأحيانا ما يقعون في صراعات، حيث أشارت المصادر في هذا السياق إلى أن الملك ماسينيسا قام باسترجاع من قرطاجة سنة (150 ق.م) خمسون (50) ما بين قرية ومدينة في منطقة الكروميري، لأنها كانت أهلة بالعنصر النوميدي⁽⁷⁾.

وكثيرا ما ذكرت المصادر أن النازحين من روما أثناء الاحتلال الروماني كانوا قليلين، وأن النوميدي كانوا يشكّلون الأغلبية الساحقة من سكان المدن وأعضاء الجيش، ثم يشار إلى دور الأفارقة المتميز في السياسة والإدارة والثقافة كدليل قاطع على تقدّم حركة الإدماج الثقافي، وتذكر الدراسات الأثرية الحديثة أن إفريقيا الشمالية كانت تحتضن أثناء الاحتلال الروماني 500 مدينة، وكان معظمها يعود إلى ما قبل التواجد الروماني⁽¹⁾.

وقد توفّرت المدن الجزائرية قديما في الجزء الشرقي من نوميديا أكثر من غربه،⁽²⁾ ومن بين المدن النوميديّة الكبرى التي تناولتها المصادر بكثرة، مدينة سيقا (Siga) عاصمة مملكة نوميديا الغربية، وسيرتا (Cirta) عاصمة الملك مسينيسا الذي وحدّ النوميديتين الشرقية والغربية (203 - 148 ق.م). وسنحاول بالخصوص تقديم ملامح هاتين المدينتين كلا على حدا.

⁽⁵⁾ محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 143.

⁽⁶⁾ محمد العربي عقون، المرجع السابق، ص 40.

⁽⁷⁾ Tite-Live, *Histoire romine*, T. XLII, 23, traduit par Verger, éd. Panckoucke, Paris 1930.

⁽¹⁾ عبد الله العروي، المرجع السابق، ص 76، 77.

⁽²⁾ Strabon, *Geographic*, XVII, 3-13, éd. H. J. Jones, coll. Loeb., Paris 1917-1949.

سيقا Siga:

من أقدم المُدن النوميديّة، ذكرتها النصوص التاريخيّة كعاصمة أولى للملك صيفاكس⁽³⁾ (Syphax) (213ق.م - 203 ق.م)، وقد جمعت في صيف 206 ق.م بين أعظم قادة العالم القديم، وهم سكيبيو الروماني (Scipion) وأذربعل القرطاجي وتحت إشراف الملك صيفاكس من أجل الصلح بين العدوين التقليديين الروماني والقرطاجي.⁽⁴⁾

تقع هذه المدينة على بعد 4 كلم جنوب واد التافنة (في الموقع الحالي تاكمبرت) وبهذا فهي تحتل موقعا استراتيجيا هاما جعلها تشرف على خليج (رشقون) وجزيرته التي أقام فيها الفينيقيون محطة تجارية منذ القرن السابع قبل الميلاد.⁽⁵⁾ لقد سمحت الحفريات التي أجريت في موقع سيقا من طرف الفرنسيان غريمال (Grimal) سنة 1936 وفيومو (Vuilleumot) سنة 1961، وكذا البعثة الألمانية سنوات 1977 و1979م من الكشف عن مواقع أثرية عديدة ومتنوعة،⁽⁶⁾ فقد عثر على دار لسك العملة الملكية ترجع إلى الملك بوخوس الأول (Bocchus I)، كما عثر على أدوات أثرية ومجموعة من الشظايا الفخارية ذات الطراز البوني مصحوبة بقطع نقدية تعود للملك صيفاكس وابنه فرمينيا.⁽⁷⁾

سيرتا Cirta:

هي قسنطينة الحالية، وقد أشير إليها في أحداث نهاية القرن 3 ق.م التي جرت بين صيفاكس من جهة وجايا وابنه مسينيسا من جهة ثانية،⁽¹⁾ ويرى ستيفان قزال استنادا إلى نص ذكره تيتوس ليفيوس (Titus Livius) (59 ق.م - 17م)⁽²⁾ أن سيرتا كانت عاصمة لصيفاكس، وإن روما منحتها لمسينيسا مع بعض المدن والضواحي والتي أضيفت إلى أملاك أجداده (Regnum Paternum).⁽³⁾

⁽³⁾ Tite-Live, XXVIII, 17, 12

⁽⁴⁾ Decret (F), Fantar (M), *L'Afrique du nord dans l'antiquité, des origines, au V siècle*, Payot, Paris 1981, p 91

⁽⁵⁾ Mac Carthy,(O), " les antéquistes Algériennes", *Revue Africaine*, vol 29, A. Jourdan libraire éditeur Constantine, Paris, 1985, p 220.

⁽⁶⁾ رابح لحسن، *أضرحة الملوك النوميدي والمور*، دار هومة، الجزائر 2007، ص 47.

⁽⁷⁾ فتيحة فرحاني، المرجع السابق، ص 120، 121.

⁽¹⁾ محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 152.

⁽²⁾ Gsell (st), H.A.A.N, T V, 125, 128.; Tite-Live, XXX,12, 4.

⁽³⁾ Ibid, p 93.

وقد أورد كل من سترابون وسالوست أن العاصمة سירתا اشتهرت في القرن الثاني قبل الميلاد بوفرة أموالها، ذلك لأنها كانت تضم بين أحضانها الخزينة النوميديّة⁽⁴⁾، وتكمن الأهمية الإستراتيجية لهذه المدينة في موقعها الهام، بحيث يحيط بها أودية الوادي العميق وذلك زاد من حصانتها وجعلها قلعة شامخة محفوفة بالمنحدرات الشديدة من أغلب جهاتها، زيادة على الحصانة وفرة المياه والأراضي الصالحة للزراعة.

ونستنتج من مسلات الحفرة ومن بعض النصوص التي أوردها سترابون (Strabon (58 ق.م - 27 م)، أن المدينة سירתا كانت نشطة وصناعية لها علاقات مع المدن والقرى المجاورة ومع العالم الخارجي، إذ جلبت بفضل نشاطها الاقتصادي ومعارضها التجارية عدد كبير من الأجانب اليونان والرومان والقرطاجيين والأثيوبيين⁽⁵⁾.

والملاحظ من خلال الآثار البونية الكثيرة في المدينة، فقد صنفها بعض الباحثين الأثريين أنها تأتي من قرطاجة مباشرة ومن المدن البونية القريبة منها، فأثرت بشكل واسع في مظهر المدينة وخصوصيتها المحلية، ويمكن اعتبار أن الملك مسينيسا والذين خلفوه من بعده قد فشلوا في تطوير وتنشيط الحضارة النوميديّة وإهمالها على حساب الحضارة القرطاجية، حيث أصبحت التقاليد والمعبودات واللغة والكتابة المتعامل بها والسائدة في سירתا وفي المدن النوميديّة الأخرى هي البونية، واستمر هذا التأثير والبقاء البوني حتى عهد الإمبراطورية الرومانية⁽⁶⁾.

كذلك نلاحظ وجود قرى تابعة إداريا للمدن الكبيرة، وهذا ما نجده في مدينة سירתا حيث كانت تحيط بها القرى التابعة لها إداريا مثل: تيديس (Tiddis) * وتيبيليس (Thibilis) ثم تيجيزيس (Tigisis) تابعة لمدينة سירתا يضاف إلى ذلك صدار (Saddar) وسيلا (Sila) ثم سيقوس (Sigus). ويشير محمد الصغير غانم إلى أن لهذه القرى والمدن إدارة محلية خارجة عن التنظيم القبلي، كما يظهر بأنه وجدت بها جاليات قرطاجية وإغريقية ورومانية، وكان معظم أفرادها يعملون كحرفيين أو رجال دين⁽¹⁾.

⁽⁴⁾ Strabon, XVII,3-13,;

أنظر كذلك: غايوس كريسبوس سالوستيوس، حرب يوغرطة ترجمة العربي عقون، دار الهدى، XXVIII الجزائر،

⁽⁵⁾ Strabon, XVII,3-7.

⁽⁶⁾ فتيحة فرحاني، المرجع السابق، ص 264.

* تيديس هو اسم نوميدي أما الرومان فأعطوها اسم Tidditanorum castili respublica ومعنى كاستيلي هو المكان المحصن ومعنى روسبيليكا أي التمتع بتنظيمات بلدية وقد كان دور هذه المدينة هو القيام بوظيفة القلعة المتقدمة لحماية مدينة سירתا من الهجمات الأجنبية .

⁽¹⁾ محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 159، 160.

النظام الإداري في المدن النوميديّة:

أما عن النظم الإدارية للمدن النوميديّة فهي غير معروفة بدقة، واستخلصنا المعلومات الخاصة بهذه الأنظمة من خلال بعض النقوش والمسكوكات التي أبرزت للوجود بعض الأنظمة الإدارية المتعلقة ببعض المدن، أما النصوص فهي غير واضحة ولم تتكلم بصفة خاصة عن إدارة المدن.⁽²⁾

وفي هذا السياق يذكر تيتوس ليفيوس أن الملك سيفاكس قام بتعيين ولاة له في مملكته بعدما استولى على نوميديا الشرقية،⁽³⁾ كما تحدث سالوستيوس (Sallustius) (86 - 35 ق.م) عن ولاة الملك يوغرطة الذين استقبلو ميتيلوس عند اجتياحه الأراضي النوميديّة.⁽⁴⁾ مما يوحي بوجود حكام أقاليم يخضعون لأوامر السلطة المركزيّة، بل ذهب بعض المؤرخين أمثال ديكرت وفنتر إلى افتراض تقسيم المملكة النوميديّة إلى إمارات مستقلة، خاصة في المناطق الداخليّة.⁽⁵⁾

كما تمتعت بعض المدن النوميديّة باستقلال ذاتي اقتصادي وإداري لتسيير شؤونها مكنها من إصدار عملتها الخاصة وانتخاب مجالس البلدية، والحال أن الوضع القانوني للمدن النوميديّة التي استحوذ عليها التجار القرطاجيون ظل محل نقاش بين الباحثين، ومن هذه الجهة يقول محمد العربي عقون أن الفينيقيين والقرطاجيين من بعدهم ليس لهم إلا الاحتكار التجاري، ولا يملكون السيادة الإدارية، فالسيادة كانت للشعب النوميدي وللملوك ولأعيان القبائل.⁽⁶⁾

كما نستخلص من بعض النقوش التي تطرقت إلى التنظيم البلدي، بأن المدن النوميديّة تأثرت إلى حد كبير بما كان مطبقا في المدن القرطاجيّة دون إهمال التقاليد النوميديّة والحكم القبلي (حكم الجماعة)⁽⁷⁾

وكانت نقيشة دوقة قد أشارت إلى مجلس المواطنين (بعل دوقة)، أي سادة دوقة الذين شيّدوا ضريحا لتخليد الملك مسينيسا، ثم ذكرت بعد ذلك رئيس المائة وحكام الخمسين، ومما لا شك فيه أن مثل هذا التنظيم الإداري كان معمولاً به في باقي المدن

(2) فتيةحة فرحاني، المرجع السابق، ص 201.

(3) Tite-Live, XXX, 11,2, 12,22

(4) سالوست، المصدر السابق، XL, VI

(5) Decret (F), Fantar (M), op.cit, p86.

(6) العربي عقون، المرجع السابق، ص 41، 42.

(7) محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 144.

النوميديّة.⁽¹⁾ كما أن هناك فقرات مهمة ذكرها المؤرخ تيتوس ليفيوس على أن أشفاطا (Suffètes) كانوا يديرون العديد من المدن النوميديّة، منها مدينة سيرتا وتيفست وذلك منذ القرن الثالث قبل الميلاد،⁽²⁾ ويضيف أيضا أن الملك كان يعين نوابا له في بعض المدن يطلق عليه اسم بريفكتي (Praefecti)، وكانت وظيفة هؤلاء إلى جانب قيادة الجيش جباية الضرائب أيضا.⁽³⁾

كما أشار ديودور الصقلي (Diodore de Sicile) (90 - 21 ق.م) إلى وجود مجمع الشيوخ أو الكبراء (Presbyteroi) الذي كان يحكم مدينة تبسة، ولا يستبعد أن ينطبق ذلك على مجلس الأعيان، كانت تستقر فيها مجموعة قبلية كبيرة، وقد غزاها القائد العسكري القرطاجي حنون (Hannon) سنة 247 ق.م وأخذ منها 3000 رهينة قادرة على حمل السلاح.⁽⁴⁾

كما ذكرت النقوش مدنا أخرى يحكمها أشفاط كما هو الشأن في مدينة (ليميسا، ألتيبيروس، مسكولة وكالاما)، وكان لهؤلاء الأشفاط مجلس شيوخ بلدي وهذا ما نجده في قائمة (كالاما) حيث نجد أول أعضاء المجلس - رب الميزة - متبوعا ب 31 اسما، كما كان بهذه المدن أيضا موظفون أقل مركزا من الأشفاط عُرفوا في النقوش بالقييمين (Aediles).⁽⁵⁾

إن الامتيازات القرطاجية في المدن النوميديّة التي جرى بها العمل وأصبحت تقليدا تجري على منواله هذه المدن أنه أنتج تعايشا بين السيادة الأهلية والاحتكارات القرطاجية، وأن الملوك النوميديين إمكنية وضع حد للاحتكارات القرطاجية، وذلك هو حال ميناء سيقا (Portus Sigensis)، الذي تشير الوثائق الأثرية إلى رجوعه تحت السيادة التامة للملك صيفاكس (206 ق.م) ومثله ميناء تابسوس - روسيكاد (Thapsus- Rusicade) الذي استرجعه مسينيسا، مع أن هذين الميناءين كانا في الأساس تحت الخضوع التام للاحتكارات القرطاجية.⁽⁶⁾

(1) محمد الصغير غانم، المرجع السابق، ص 159

(2) Tite-Live, XXX, 12,8.

(3) Ibid, XXX, 11,2.

(4) Diodore de sicile, *Bibliothèque historique*, XXIV,10,2, trad. Par A.F.Miot, Paris 1934.

(5) محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري، منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1992، ص ص 108، 109.

(6) محمد العربي عقون، المرجع السابق، ص 42

وكان على رأس البلدية رئيس يحمل اسم "إغليد" (Aguellid)، وهو نفس اللقب الذي يحمله ملك النوميديين، يُنتخب لمدة سنة واحدة، كما يمكن إعادة انتخابه، كما تم العثور على نقوش من نصوص ليبية تحمل رتبا إدارية دون أن يتوصل الباحثون من ترجمتها أو معرفة نوع الوظيفة مثل (MS'KW) و (GLD, GYML, GZB)، كما أشارت نقوش أخرى إلى الكتاب والأمناء والمحاسبين وأمناء الخزينة والمقتصدين وناقلو البريد وجبات الضرائب وغيرهم من الوظائف التي كانت في خدمة الجهاز الإداري لهذه المدن والبلديات، إذ تعود معظم هذه النقوش خلال القرون الثلاثة قبل الميلاد، وهي فترة ازدهار الممالك البربرية.⁽¹⁾

ويعتبر جباة الضرائب أهم وظيفة إدارية تعتمد عليها الدولة في إيراداتها، وتوكل مهمة تحصيل الضرائب إلى مكلفين محليين في المدن والقرى والقبائل، ويكون هؤلاء تحت رقابة أمناء يعيّنهم الملك، وتشمل هذه الضرائب حسب ما ذكره سترابون محاصيل الحبوب وكذلك المواشي⁽²⁾، أما الذين يمارسون مهناً كالصناعة والتجارة فإنهم يدفعونها نقدا.⁽³⁾

كما ذكرت المصادر عددا من المدن التجارية كانت مقرا للخزينة الملكية، منها سيرتا العاصمة وسوثول (Suthul)، كما تعتبر هذه المدن أنها كانت مقرات جهوية للإدارة المالية التي تقوم بدفع رواتب الموظفين والعمال في تلك الأقاليم، وكانت هذه الخزائن تحتوي على رصيد نقدي كبير.⁽⁴⁾

جوانب من العمارة النوميديّة:

إن كثرة الآثار الرومانية في المدن الجزائرية القديمة تحجب عنا الآثار التي تعود إلى ما قبل الرومان، لأن هؤلاء المستعمرين شيدوا مدنهم على أنقاض المدن النوميديّة، والبحث عنها بالتالي يستلزم التضحية بالآثار الرومانية، وكان نتيجة ذلك أن ظلت تقنيات العمارة النوميديّة مجهولة تقريبا، والنماذج المتبقية منها في مجملها عبارة عن آثار مهدمة وأضرحة بالخصوص، وتقع غالبا خارج المدن.⁽⁵⁾

كما عثر في الناحية الجنوبية الشرقية من منحدر الحفرة بقسنطينة على عدد من القطع الحجرية استعملت في الهندسة المعمارية، نذكر منها كذلك حجارة مصقولة

(1) محمد الهادي حارش، المرجع السابق، ص 110، 111.

(2) Strabon, XVII, 3, 19.

(3) Tite-Live, XXXIV, 62, 2.

(4) محمد العربي عقون، المرجع السابق، ص 47.

(5) محمد الهادي حارش، المرجع السابق، ص 152.

جيرية وكذلك بعض الحجارة الهندسية ذات اللون الأبيض، وهذه الحجارة نجدها مستعملة بكثرة في مصاطب الدولن* (Dolmens) والمنتشرة بكثرة بجوار المدن.⁽⁶⁾ ومن بين مواد البناء التي استعملها السكان في بناء معالم المدينة هي المواد المتوفرة حولهم من أنواع الحجارة ويمكن أن نذكر منها:

- الحجارة الكلسية الوردية اللون.
- الحجارة الكلسية الرمادية المائلة للوردي أو الاحمرار.
- الحجارة الكلسية الصدفية.⁽¹⁾

كما عرف بناء الأضرحة تطورا ملحوظا في عهد الممالك القديمة، وأولى أعيان وأمراء وملوك النوميدي اهتماما في بناء معالم جنائزية تنوعت مقاييسها وأشكالها الهندسية ومخططاتها الداخلية والخارجية،⁽²⁾ هذه الأضرحة الملكية التي تطورت عن القبور المخروطية (Basina) والأبراج الجنائزية أو الشوشت (Chouchet).^{*} ومن بين نماذج العمارة الجنائزية المحلية المتواجدة في المدن الجزائرية:

ضريح المدغاسن:

يعتبر ضريح المدغاسن أقدم نموذج للعمارة النوميديّة، وهو مخروطي الشكل وله قاعدة اسطوانية ارتفاعها أقل من 5 أمتار وطوق مشكل من الدكات (Grasins) وعددها 23 دكة، ومزين بـ 60 عمودا على الطراز الدوري، وطول المعبد 18,35م وقطر القاعدة 58,86م، وهو مسبوق بمنصة ذات 25م على 14م، تقام عليها المراسيم الجنائزية.

وفي وسط المعبد وجدت غرفة الدفن، والملاحظ من خلال المخلفات الأثرية المتمثلة في الحجارة المحيطة بالمعبد أن له طابعا نوميديا كما يظهر فيه تأثير بونيقي إغريقي.⁽³⁾

* الدولن عبارة عن صندوق حجري من الحجارة الطويلة والعريضة مفلق ومتين وهي إما مربعة اتلشكل أو بيضاوية والمقاييس العادية للدولن تتراوح بين 1 مترو 0,8 متر عرضا أو 2,1 متر عمقا .

⁽⁶⁾Gsell (st), H.A.A.N, T V, pp, 237,238.

⁽¹⁾ محمد خير أورفه لي، "كلاما (قائمة) دراسة وصفية للبقايا الأثرية للمدينة"، مجلة الآثار، معهد الآثار، جامعة الجزائر، 6، 2007، ص ص 30، 31.

⁽²⁾ رابع لحسن، المرجع السابق، ص 61.

* يطلق عليها كذلك بالمقابر الطاقية Chouchet وسميت بهذا الاسم نسبة إلى شكلها البرجي وهي عبارة عن اسطوانة قطرها حوالي 5 أمترو عمقها 5,2م توجد بداخلها خانة لوضع الجثث وهي منتشرة في المنطقة الشرقية بكثرة ويرجع تاريخها إلى القرن 3 قبل الميلاد.

⁽³⁾ محمد الهادي حارش، المرجع السابق، ص 160، أنظر كذلك: فتية فرحاني، المرجع السابق، ص 312.

ضريح الخروب:

يقع على هضبة بالخروب على بعد 14 كم من المدينة سيرتا، وقد بني بالحجارة الكبيرة المنحوتة، يبلغ طول قاعدته المربعة 8,40م وعلوها 2,35م، ويعلوها ثلاث مدرجات ترتكز عليها القاعدة القصيرة المزينة بالناثات (Molures) في الأسفل والأعلى، أما الغرفة الجنائزية فقد وضعت على عمق 1,5م تحت الأرض ومغطاة ببلاطات من الحجر تشكل أسواراً من 2م طولاً و 1م عرضاً.⁽⁴⁾

وعلى عكس الأضرحة الأخرى يزخر ضريح الخروب بأثاث جنائزي أكتشف لأول مرة خلال حفريات 1915 و1916م، ويتكون في الغالب من أسلحة دفاعية وهجومية وزينة متنوعة وجرار (Amphores) وأواني فضية.

وعن هندسة الضريح فالملاحظ أنها مستوحاة من الفن الإغريقي الصقلي ومزيج من الزخرفة الفينيقية الإغريقية، ويتجلى هذا التأثير الإغريقي في الأعمدة والتيجان الدورية والزخارف الناتئة التي تزين القاعدة السفلى وإفريز الطابق العلوي، أما عن التأثير الفينيقي فيمكن استنباطه من جبهات البناء والتجويف أو الطنف المصري الشائع عند الفينيقيين.⁽¹⁾

خاتمة:

لقد تميزت شعوب شمال إفريقيا بوجود نوعين من نمط الحياة، شعب من البدو الرحل رعاة الغنم والأبقار يسكنون البيوت المتقلة أو الناباليا، ويتفلون من منطقة إلى أخرى كلما مسهم القحط، وشعباً مستقراً زراعياً وحرفياً يقيم في القرى والمدن المحصنة، وكانت حياة هؤلاء شبيهة بحياة بقية الأمم والشعوب في المسكن وإنشاء المدن وتنظيمها ولكنهم ترقوا وفق الظروف المحيطة بهم، كما تأثروا بمجاورة الإغريق وبمعايشة الفينيقيين ثم فيما بعد بالرومان.

فباحثكك النوميديين بالمراكز التجارية والمدن القرطاجية سهل عليهم الاندماج في حياة الاستقرار والتمدن، وعملوا شيئاً فشيئاً على نقل تلك الجوانب الحضارية القرطاجية إلى داخل نوميديا، مما ترتب عنه تسارع عملية الاستقرار والتمدن في القرى الداخلية، فقامت هي الأخرى حتى أصبحت حواضر كبرى، وبوفرة المواد الأولية والثروة الحيوانية نشطت بها الصناعة والتجارة مما جعل بالرومان يطعمون في

⁽⁴⁾ راجع لحسن، المرجع السابق، ص211.

⁽¹⁾ راجع لحسن، المرجع السابق، ص211.

ثرواتها وخيراتها، فأخذت تخلق أعدارا لاحتلال المنطقة خصوصا بعدما أنهت عدوها التقليدي قرطاجة سنة 146 ق.م، ولولا تدخل الرومان في شؤون شمال إفريقيا واستيلائهم عليه ضمن تنفيذ سياسة رومنة الضفة الجنوبية للبحر المتوسط لما أثرت كثير من القضايا التي حصلت بين الملوك النوميديين والقرطاجيين، ولحافظت المنطقة على وحدتها وخصوصيتها، وكان من الممكن لهذه المدن النوميديّة أن تنمو في شكلها المعماري الإفريقي الأصيل أكثر لولا الاستعمار الذي فرض على السيادة الوطنية وأزال معالم الحضارة النوميديّة ورموزها الفنية.

جدول لأهم المدن النوميديّة (الجزائر حاليا): ⁽¹⁾		
الاسم القديم	الاسم الحالي	الاسم اللاتيني
سيرتا	قسنطينة	Cirta
سيغا	سيقا	Siga
هيبو ريجيوس	عنابة	Hippo rigius
سوثول	ناحية سوق اهراس	Suthul
كالاما	قالة	Calama
أوزيا	صور الغزلان	Ausia
ماسكولة	خنشلة	Macula
ماكوماداس	جنوب عين البيضاء	Macomades
نارا قارا	سيدي يوسف ناحية	Naraggara
روسيكاد	سكيكدة	Rusicade
تيميس	قلعة بناحية الشلف	Timis
روزرگورو	دلس	Rusuccuru
روزاسوس	آزفون	Rususus
تيفست	تبسة	Theveste

⁽¹⁾ محمد العربي عقون، المرجع السابق، ص 43.



الشكل رقم 02: ضريح المدغاسن

الشكل رقم 01: ضريح الخروب

بيبليوغرافيا البحث:

أولاً: المصادر

I - الأجنبية

- 1- Diodore de sicile, **Bibliothèque historique**, trad. Par A.F.Miot, Paris 1934.
- 2- Hérodote, **Histoire**, Texte établi et traduit par Ph.E. le Grand, éditions les belles lettres, Paris 1980.
- 3- Strabon, **Geographie**, éd.H. J.Jones, coll. Ioeb., Paris 1917-1949.
- 4- Tite-Live, **Histoire romine**, traduit par Verger, éd. Panckoucke, Paris 1930.

II - المترجمة

- 1- غايوس كريسبيوس سالوستيوس، **حرب يوغرطة**، ترجمة العربي عقون، دار الهدى، الجزائر (د.ت).

ثانياً: المراجع

I - الأجنبية

- 1- Decret (F), Fantar (M), **L'Afrique du nord dans l'antiquité, des origines, au V siècle**, Payot, Paris 1981.
- 2- Gsell (st), **Histoire ancienne de l'Afrique du nord**, T.V, Librairie Hachette, Paris 1927.

II - العربية:

- 1- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج1، ترجمة: محمد مزالي، والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس (د.ت).
- 2- محمد العربي عقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، دار الهدى ، الجزائر، 2008.
- 3- محمد بن المبارك الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت (د.ت).
- 4- عبد الله العروي ، مجمل تاريخ المغرب، ج1، المركز الثقافي العربي، ط 5، المغرب 1996.
- 5- محمد الصغير غانم، المملكة النوميديّة والحضارة البونية، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 1998.
- 6- فتيحة فرحاني، نوميديا من حكم الملك جايا إلى بداية الاحتلال الروماني 213 ق.م - 46 ق.م، مطبعة متيجة 2007.
- 7- رايح لحسن، أضرحة الملوك النوميدي والمور، دار هومة، الجزائر 2007.
- 8- محمد الهادي حارث، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري، منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1992.

ثالثاً: الدراسات:

I-الأجنبية

- 1- Flatters (p)," L'Afrique septentrionale", **Revue Africaine**, Vol. 21, 1877.
- 2- Mac Carthy,(O)," les antéquistes Algériennes", **Revue Africaine**, vol 29, A, 1985.

II-العربية

- 1- مجموعة من الباحثين، الاحتلال الاستيطاني وسياسة الرومنة، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر 2007.
- 2- محمد خير أورفه لي، "كلاما (قائلة) دراسة وصفية للبقايا الأثرية للمدينة"، مجلة الآثار ،معهد الآثار، جامعة الجزائر ع.6، 2007.